المؤتمر العلمي الدولي الثالث للعلوم الإنسانية والاجتماعية والتحديات المعرفية
جامعة فردوسي مشهد 2025
CHARMO

تجليات السلم في الشعر الصوفي (دراسة تحليلية في أشعار ابن الفارض)

سيد رضا موسوي[1]، كبرى روشنفكر[2]

١. متخرج الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس

٢. أستاذة مشاركة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس (الكاتبة المسؤولة)[1]

الملخص

إن السلم يعد من المفاهيم الأساسية في المجال السياسي-الاجتماعي، وتحقيقه أمر مهم وضروري للمجتمع البشري كافة؛ فلذلك نجد أن البشر قد جعله موضع العناية البالغة في فترة ما بعد الحداثة وتطورت مفاهيمه كثيراً. والشعر الصوفي من أحسن ما يمكن أن يُستعان به لنشر المفاهيم المتعلقة بالسلم بين الناس ومن ثم تحقيق السلم بين الأمم. ولا شك أن ابن الفارض يعد من أكبر الشعراء الصوفيين في الأدب العربي الذي تجسد في كثير من أشعاره المفاهيم التي تدل على السلم بأشكالها مختلفة. تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن أهم تجليات السلم في الأشعار الصوفية لابن الفارض معتمدة على المنهج الوصفي-التحليلي. وتدل النتائج على أن مفاهيم السلم تتجلى في أشعار ابن الفارض بصورة واضحة ويمكن الحصول على هذه المفاهيم بإمعان النظر في المعاني الصوفية التي يتجسدها الشاعر؛ حيث نلاحظ أنه استخدم في كثير من الأحايين المضامين التي تدل على السلم بصورة غير مباشرة. ومن أهم تجليات السلم في شعر ابن الفارض استخدام مفهومي الحب والطبيعة اللذَين يتناسبان مع الدعوة إلى التصالح والسلم بين الناس. فضلاً عن ذلك نجد في أشعاره ملامح من الدعوة إلى السلم بين الأديان.

الكلمات الدليلية: السلم، التصالح، الشعر الصوفي، ابن الفارض.

١- المقدمة

إن مسألة السلم والحرب شغلت بال كثير من الناس ودارت حولها مناقشات ومحاورات كثيرة وبذلت جهودٌ كبيرة في تحقيق السلم بين الناس خاصة في عصرنا الراهن؛ ولكن رغم هذه الجهود كلها لايزال البشر لم يكفّ عن بث الفتن وشن الحروب المدمرة؛ الأمر الذي جعل المعنيين بتحقيق السلم والباحثين يهتمون اهتماماً بالغاً بدراسة موضوع السلم. فمما يؤكد ضرورة دراسة هذا موضوع والبحث عنها هو أن السلم

1- Email: kroshan@modares.ac.ir

بوصفه مفهوماً مهماً للبشرية يجب أن يصبح خطاباً عالمياً، وذلك يحتاج إلى نشر الدراسات والبحوث الكثيرة التي تتطرق إلى مفهوم السلم (فوكو، ١٣٨٣: ١٢٤).

إن الأدباء في مختلف الأزمنة قاموا بدورهم في الدعوة إلى السلم، والتنبيه إلى بشاعة الحروب، ورفض القراءات الخاطئة للأديان التي وظفت الدين في بث الفتن. ولما كان الشعر ينبعث من الأحاسيس الجياشة المشتركة بين البشر فيلعب دوراً بارزاً في تحقيق السلم بين الأمم والتصالح بين الناس، ويعتبر أيضاً من أهم المجالات التي يستفيد منها الأدباء لنشر مفهوم السلام في العالم؛ وقد لوحظ هذا الأمر في آثار كثير من الشعراء الأكابر في الآداب العالمية المختلفة (ممبيني وآخرون، ٢٠١٦: ١٩٨-١٩٩). والشعر الصوفي من أهم الأشعار التي استعان الإنسان بها ليتحقق هذا الهدف منذ قديم الزمان؛ والسبب في ذلك هو أن «الشرط الأساسي للعيش السلمي مع الآخر المختلف ابتداء هو العيش بسلام مع النفس، ومن ثم "إبراء" النفس من العلل النفسية والفكرية، والسلك بها إلى حيث "النجاة" والخلاص المتأتيان من وعي بقيمة السلم وضرورة ممارسته ممارسة الرضا، لا ممارسة السخط والكراهة والاضطرار» (معارز، ٢٠١٧: ٣) فليس السلام الخارجي إلا انعكاساً للسلام الداخلي الكامن في النفس، وهذا ما نجده في الشعر الصوفي. من هذا المنطلق تحاول هذه الدراسة أن تكشف عن تجليات مفهوم السلم في أشعار ابن الفارض الصوفية. واعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي وتحددت المفردات والمفاهيم التي تدل على السلم كالحب، والحرية والسلم، والأخوة والتصالح، والإعمار والإصلاح، والحديث عن الطبيعة ومظاهرها، وأخيراً حاولت الكشف عن هذه المفاهيم في أشعار ابن الفارض. وتحاول الدراسة أن تجيب عن السؤال التالي:

ماهي تجليات مفهوم السلم في أشعار ابن الفارض وكيف استطاع الشاعر أن يدعو الناس إلى التصالح من خلال أشعاره؟

١-١. الدراسات السابقة

هناك دراسات وبحوث ذات صلة بموضوع دراستنا منها:

١- مقالة مرادي، محمد هادي وفاطمه نصر اللهي (٢٠١٢)، المعنونة بـ «الغزل الصوفي عند ابن الفارض وجامي: دراسة نقدية مقارنة في المضمون». تطرق الباحثان في هذه الدراسة إلى الغزل الصوفي للشاعرين الكبيرين ابن الفارض وجامي؛ فألقيا الضوء على حياة الشاعرين، ثم حاولا دارسة أهم مظاهر الشعر الصوفي كالخمر والمرأة اللتين يوظفهما الشاعر لبيان المفاهيم العرفانية. فتوصلا إلى أن ابن الفارض وجامي استخدما الخمر والمرأة كرمزين لبيان الحب الإلهي الذي تدور حوله غالبية أشعارهما الصوفية.

٢- مقالة افتخاري، اصغر وحسين محمدي سيرت (٢٠١٤)، المعنونة بـ «صلح و سلم در قرآن كريم». هدفت هذه الدراسة إلى الحصول على مفهوم مفردة السلم في القرآن الكريم معتمدة على منهج

تحليل المحتوى والمنهج السيميائي. وتوصلت إلى أن العدالة، والحق، والعزة، والإيمان من المفردات التي أعطت مفهوماً جديداً للسلم في القرآن الكريم، وأن الإسلام ينظر إلى السلم بنظرة إيجابية ويهدف من خلاله الوصول إلى الأهداف الإلهية.

٣- مقالة ممبيني، سجاد وآخرون (٢٠١٦)، المعنونة بـ «تحليل محتواى مفهوم صلح در شعر شاملو (مطالعه موردى: مجموعه هواى تازه)». سعى الباحثون في هذه الدراسة إلى الكشف عن مفاهيم السلم في شعر شاملو، الذي يعد من أكبر الشعراء الإيرانيين، معتمدين على منهج تحليل المحتوى. فانقسموا مفهوم السلم إلى ثلاثة أقسام هي الحرية، والأخوة، والإعمار وتوصلوا إلى أن شعر شاملو يتضمن مفهوم السلم بنسبة كثيرة والقسم الأكبر من مفاهيم السلم في شعره يتعلق بالمفاهيم الدالة على الأخوة.

٤- مقالة سيفي، محسن ورويا اسماعيليان (٢٠١٧)، المعنونة بـ «ريشه‌يابى تاريخى جامعه شناسى صلح در معلقه زهير بن أبي سلمى». حاولت هذه المقالة أن تدرس مضمون السلم في معلقة زهير بن أبي سلمى لكي تكشف عن أهمية الأدب في العصر الجاهلي وأهمية محاولات الشاعر في الدعوة إلى السلم في العصر الذي يملأ بالحروب. وتوصلت إلى أن زهير بن أبي سلمى هو الشاعر الوحيد الذي يتجسد السلم في العصر الجاهلي بصورة كاملة.

فيلاحظ أن الدراسات السابقة لم تتطرق إلى الكشف عن مفهوم السلم في أشعار ابن الفارض الصوفية؛ فإن دراستنا هذه تختلف عن الدراسات السابقة.

٢. حياة ابن الفارض

«هو عمر بن علي بن المرشد بن علي شرف الدين أبوحفص الحموي الأصل، ولد بالقاهرة في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦ ق، قدم أبوه من حماة في بلاد الشام إلى مصر فأقام فيها، وكان يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام ولقب بالفارض، وهناك رزق بولده عمر، لذلك سمي بابن الفارض» (ابن غالب،دتا: ٤/١). «شغل ابن الفارض بالشعر نحو أربعين سنة» (ابن الفارض، ١٩٩٠: ٧) وقد لقّب بسلطان العاشقين لقوله:

يحشَرُ العاشِقُونَ تَحتَ لِوائي وجَميعُ المِلاحِ تَحتَ لِواكا

«والعاشقون كناية عن أهل المحبة الإلهية. والمرء يحشر على ما مات عليه واللواء كناية عن الروح، والملاح كناية عن التجليات الربانية» (المصدر نفسه: ١٥٦). وكانت وفاة سلطان العاشقين «شرف الدين عمر ابن الفارض فى العام الثانى والثلاثين بعد المائة السادسة للهجرة، ودفن في سفح جبل المقطم فى مكان يدعى اليوم قرافة ابن الفارض. ومازال قبره حتى الساعة مزارا يزدحم بأفواج المؤمنين» (المصدر نفسه: ١٥). وفيما يتعلق بحياته بعد مماته أي بفهم مذهبه الصوفي وماينطوي عليه هذا المذهب من منازع فلسفية

فيرى بعض المصادر أنه من القائلين بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود، وهو بهذا يكون خارجاً على تعاليم الكتاب والسنة؛ ويدافع بعضها الآخر عن ابن الفارض، ويدفع الشبهة عنه، ويرد ما اتهم به من إلحاد وخروج على الكتاب والسنة (حلمي، دتا: ٢٥).

٣- المفاهيم النظرية والتعاريف

٣-١. مفهوم السلم

السِّلم والسَّلم لغةً: الصلح، يفتح ويكسر، ويذكر ويؤنث، وقال ابن الأثير يروى بكسر السين وفتحها وهما لغتان للصلح؛ ومنه الحديث: أسلمُ سالَمها الله، هو من المسالمة وترك الحرب. والتسالم: التصالح. والمسالمة: المصالحة. والسلام والسلامة: البراءة. سلِمَ يسلَم سلاماً وسلامةً؛ ومنه قيل للجنة: دار السلام، لأنها دار السلامة من الآفات (ابن المنظور، ١٩٩٢: مادة سلم).

أما اصطلاحاً فقد عرفه أكثر الباحثين بأنه ضد الحرب ومعاكس لمفهوم الحرب (افتخاري ومحمدي سيرت، ٢٠١٤: ٥٥). وفي التعاريف الأسطورية يعرفه الباحثون بأنه مفهوم مثالي؛ وأما علماء الاحصاء فيعتمدون في تعريف السلم على عدد الأموات والمقتولين (بوتول، ١٣٧١: ٣٠). فيمكن القول بأن «السلم أو السلام حالة من التوافق تتحقق بين طرفين إذا توافر الانسجام وعدم وجود العداوة. والسلام حالة من الوئام والأمن والاستقرار تسود الأسرة والمجتمع والعالم وتتيح التطور والازدهار للجميع» (الشهابي، ١٩٩٠: ٢٣٦). بدقة النظر في المفهوم المعجمي لكلمة السلم يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي: الحرية والأمان، الأخوة والتصالح، الإعمار والإصلاح (ممبيني وآخرون، ٢٠١٦: ١٩٨-١٩٩). ومما يدل على السلم أيضاً هو العدالة بين الناس واحترام حقوق الآخرين (قادري وآخرون، ١٣٨٧: ٥٣ نقلاً عن هريس وموريسون)، ويرتبط السلم أيضاً بإعمار الطبيعة ومظاهرها وعناصرها والحديث عنها، مما يتيح للإنسان أن يثور على أعداءها الذين يدمرونها بالحروب وارتكاب الجرائم الفظيعة.

وهناك ثلاثة مفاهيم «تستخدم في مجال مفهوم السلام وهي: ١- صنع السلام[1]: وهو مساعدة أطراف النزاع للوصول إلى اتفاق تفاوضي. ٢- حفظ السلام[2]: وهو منع أطراف النزاع من الاقتتال فيما بينهما. ٣- بناء السلام[3]: وهو تهيئة ظروف المجتمع حتى يستطيع المجتمع أن يعيش في سلام، وهذا يشمل عدة طرائق مثل التربية في مجال حقوق الإنسان، والتنمية الاقتصادية، وزيادة المساعدات والتكافل الاجتماعي،

[1] making Peace
[2] Peacekeeping
[3] building Peace

واستعادة الانسجام والتآلف بين فئات المجتمع الواحد. والسلام ضمن هذا المفهوم يتطلب توافقاً بين الفرد ومجتمعه، وبين الرجل والمرأة، وبين البيئة والإنسان بوصفه نوعا بيولوجيا» (عبد المؤمن عمر وآخرون، ٢٠١٦: ٢٣٦).

٣-١-١. السلم السلبي والإيجابي

يعتقدJohan Galtung أن السلام ينقسم إلى السلبي والإيجابي، أما السلبي فهو غياب العنف المباشر (الحروب)، بينما السلام الايجابي هو غياب العنف اللامباشر، بما يمكّن الأفراد من الانسجام والاتحاد فيما بينهم وتوفر هدوء البال وقيم انسانية مشتركة (Galtung, 1968: 847). فلا يمكن للإنسان أن يعمر الأرض بدلاً من أن يدمرها ويدمر نفسه إلا عبر التفاعل الإنساني الودي بين الأفراد والجماعات والشعوب والأمم بهدف بناء حضارة عالمية تحترم البشر كافة (الشهابي، ١٩٩٠: ٧).

٣-١-٢. مفهوم السلم الذاتي (الداخلي) والسلم الاجتماعي والعلاقة بينهما

السلام الاجتماعي يعني استبعاد كل مظاهر العنف والقهر والخوف في المجتمع، لا يعني فقط غياب الحرب كما أنه ليس فقط ظاهرة سياسية، ولكنه يعبر عن عملية اجتماعية لها العديد من المستويات، والتي تتضمن السلام على مستوى العائلة، وعلى مستوى المجتمع، ثم على المستوى الإقليمي والدولي أيضا؛ كما يتضمن أيضا السلام الداخلي، أي السلام مع النفس وهو هذا النوع من السلام الضروري من أجل خلق عالم سلمي (عبد الوهاب، ٢٠٠٦: ٨٢).

«إن فقدان الوعي بضرورة الاتصاف بالمسالمة الذاتية أو الفردية يعني عدم القدرة على النهود بها إلى الآخر أو ال(نحن) المجتمعي. ولابد لتحقيق نوع من السلم المجتمعي من تحقق نوع من السلم الفردي متمثلا بأن يعيش الفرد حالة السلم بين مكوناته الوجودية؛ قلباً وقالباًونفساًوفكراً، وإلا فإن أي انقطاع للصلة بين هذه المكونات، ومن ثم فإن أي عدم انسجام وظيفي بين أحدها والآخر يعني عدم العيش بسلام، وحينها ليس ثمة بديل إلا التصارع والتنازع والتخاصم والتقاطع بين المكونات البنيوية للسلم الذاتي أو الفردي» (معارز، ٢٠١٧: ٨). مفهوم السلم «منبثّ بين الوحدة "ممثلة في الفرد"، والتعدد "ممثلاً في المجتمع"، مع فرصة كبيرة لتبادل الأدوار؛ بمعنى أن عدم استشعار الفرد لأهمية التعدد المنبني على قبول الآخر ومسايرته واحترامه والامتداد إليه وقبوله يعني انتفاء قدرته على أن يكون حاملا لقيمة السلم؛ ما يعني أن وجوده في المجتمع وجود سالب إن لم يكن مدمرا، وإن كانت الصفة الفوقية للمجتمع هي صفة المسالمة» (المصدر نفسه: ٤).

وتجدر الإشارة إلى أن الشعر الصوفي مجال رحب للحديث عن السلم الداخلي (النفسي) والاجتماعي والدعوة إليهما. فعواطف الشعراء الصوفيين تمكّنهم من الحديث عن الأخوة، والتصالح، والإعمار، والحديث عن مظاهر الطبيعة وما إلى ذلك من المفاهيم الدالة على السلم.

۳-۱-۳. السلم في الإسلام

هناك آيات قرآنية كثيرة تدعوا إلى السلم والصلح كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (البقرة: ۲۰۸) أو قوله تعالى: (وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا) (الأنفال: ٦١) أو قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) (الحجرات: ۱۰)، أو قوله تعالى: (وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (البقرة: ۲۱۹). فمنذ «بزوغ فجر الإسلام، وبداية التشريع الإسلامي، أعطى الإسلام أهمية كبيرة للسلم والاستقرار لما يترتب عليه من مصالح كبيرة، من شأنها تحقيق السلم والأمن في المجتمعات» (المؤمني، ۲۰۱۸: ۱۱۷). ويرى الإسلام «أن الحرب ظاهرة غير مرغوب فيها؛ والأصل في الحياة البشرية هو التفاعل السلمي والحضاري، أما القتال أو الاقتتال فهو خروج عن الأصل وانحراف عن المسار الطبيعي الذي ينبغي للشعوب سلوكه من أجل تحقيق رسالة الإنسان في الأرض. جعل الإنسان خليفة في الأرض، والخليفة الذي يختاره الله ينبغي له أن يبني ولايهدم، أن يعمر ولا يخرب» (الشهابي، ۱۹۹۰: ٤٤). «فالحرب كره للمؤمنين، لكنها عندما تكون دفاعاً عن العقيدة وفي سبيل الله تؤدي إلى إشاعة السلام وتعزيز التفاعل الودي بين الشعوب. وفي ذلك خير للبشرية جمعاء وليس للمسلمين وحدهم» (المصدر نفسه: ٤٦).

۳-۲. التصوف والشعر الصوفي

التصوف كما يقول الجرجاني هو «تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعة، ومجانبة الدعاوي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة... وقيل: بذل المجهود والأنس بالمعبود، وقيل: هو صفاء المعاملة مع الله تعالى، وأصله التفرُّغ عن الدنيا» (الجرجاني، دتا: ٥٤).

«يتنوع التراث الصوفي في العالم بين الشعر وغيره من أشكال التعبير، ولقد خلف الصوفية المسلمون تراثاً عظيماً تميز بثراء الخيال والرمز وتنوع الموضوعات بين تصوير للتجربة في الطريق الصوفي وتعبير عن الحب الإلهي» (منصور، ۱۹۹۹: ۲۷)؛ ويمكن تقسيم مراحل تطور الشعر الصوفي في الأدب العربي إلى أربع فترات: الفترة الأولى: من سنة ۱۰۰ إلى ۲۰۰، وقد تكوّن الإطار الفني والفكري للشعر الصوفي في هذه الفترة، و يعد رابعة العدوية من مشاهيره؛ والفترة الثانية: تشمل القرنين الثالث والرابع وقد ازدهر الشعر الصوفي في هذه الفترة ومشاهيره المتنبي والشريف الرضي؛ والفترة الثالثة: تشمل القرنين الخامس والسادس،

وقد ركز الشعر الصوفي في هذه الفترة على الحب الإلهي ومدح النبي (ص) والدعوة إلى الفضائل الإسلامية؛ والفترة الرابعة: تشمل القرن السابع، وقد بلغ الشعر الصوفي في هذه الفترة إلى ذروته ومن مشاهيره ابن الفارض ومحي الدين ابن عربي (احمدي، ١٣٩٧: ٤٨).

٤– القسم التطبيقي

٤– ١. تجليات السلم في شعر ابن الفارض

إن الدعوة إلى السلم من المفاهيم الأساسية التي يمكن استنباطها من أشعار ابن الفارض، وإنه في مواضع كثيرة أشار إشارات مباشرة أو غير مباشرة إلى السلم والصلح. ونذكر فيما يلي ما نجد من المفاهيم الدالة على السلم، التي أشرنا إليها سابقا، في أشعار ابن الفارض.

٤–١–١. مفاهيم السلم في خمريات ابن الفارض

إن الخمر موضوع مهم في شعر ابن الفارض ولكنها ليست خمرة مادية وهي في الحقيقة «بهذه الصفات الفاضلة والمؤثرة على المخلوقات ليست إلّا الحبّ الإلهي» (جودة نصر، ١٩٨٣: ٣٦٣). ويصفها ابن الفارض كدواء لكل داء وسبب لكل فرح، إذ يقول:

وإن خطرت يوما على خاطر امرىء　　أقامت به الأفراح، وارتحل الهمّ
ولو نظر الندمان ختم إنائها　　لأسكرهم من دونها ذلك الختم
ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت　　لعادت إليه الرّوحُ، وانتعش الجسم

(ابن الفارض، ١٩٩٠: ١٨٠)

فإن الأفراح من المفردات التي تدل على السلم. وابن الفارض يدعو إلى الأفراح والخروج عن الهم الذي ينبعث من عدم التصالح بين الناس وعدم إجابة دعوة الحبيب الذي يدعو إلى السلم والتصالح. ولقد أشرنا سابقاً أن الإعمار والإصلاح من المفردات الأخرى الدالة على السلم ويلاحظ هذا المفهوم في الأبيات السابقة، حيث يرى ابن الفارض أن الخمرة، وهي رمز لحب الحبيب الأزلي، يمكن لها أن تسبب عودة الروح وانتعاش الجسم. وهذا الإصلاح عند ابن الفارض يشمل الأمور الداخلية كما يشمل الأمور الخارجية، حيث يقول:

تُهذب أخلاق الندامي، فيهتدي　　بها لطريق العزم، من لا له عزم
ويكرُمُ من لم يعرف الجودَ كفَّهُ　　ويَحكُمُ، عند الغيظ، من لا لَه حلم

(المصدر نفسه: ١٨٢)

فإن الخمرة تهذب وتصلح الأخلاق التي تعد من الأمور الداخلية، حيث إنها تعطي شاربها العزم والكرم والحلم؛ فليست الخمرة، وهي رمز للحب، سبباً في إصلاح بعض الأمور التي تسلب السلم دون بعضها،

بل إنها تؤدي إلى إصلاح كل ما يحول دون التعايش السلمي. والخمر التي يصفها ابن الفارض تشفي كل مرض وتحلّ كل مشكلة، حيث يقول:

ولو طَرَحوا، في فَيءِ حائط كرمها — عليلاً، وقد أشفى لفارقهُ السقمُ
ولو جُليت، سراً على أكمَهٍ غدا — بصيراً، و من راووقها تَسمعُ الصمّ

(المصدر نفسه: ۱۸۰-۱۸۱)

فلاشك أن الحب الحقيقي أو حب الله الذي يعبر عنه ابن الفارض، من أهم الأسباب التي تحقق للإنسان السلام الداخلي كما تحقق للعالم السلام الخارجي ويزيل كل شر يوجد في العالم. ويعتقد ابن الفارض أن قيام الناس بالأعمال السيئة التي تبعد قلوبهم وتسبب عدم التصالح بينهم ينبعث من أنهم لايميلون إلى هذا الحب. فإنهم يتّهمون الذي يحب الله ويجتنب الشر بأنه أثيم:

وقالوا :شربتَ الإثم !كلّا وإنّما — شربتُ التي، في تركها عِنديَ الإثمُ

(المصدر نفسه: ۱۸٤)

فلا يشك الشاعر أن التصالح والسلام لا يتوافران إلا بحب الحبيب الأزلي، ويرى ابن الفارض أن الحياة دون هذا الحب هي الموت بعينه:

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحيا — ومن لم يمت سكرا بها فاته الحزم
على نفسه، فليبك من ضاع عمره — و ليس له فيها نصيبٌ ولا سهمٌ

(المصدر نفسه: ۱۸٥)

وهكذا استطاع ابن الفارض أن يعبر عن المفاهيم المختلفة الدالة على السلم بشعره الصوفي، ولعله يعتقد أن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى السلم دون التمسك بمفهوم السلم عند الصوفيين.

٤-١-٢. السلم ومظاهر الطبيعة في شعر ابن الفارض

ومن أهم ما استفاد منه ابن الفارض كرمز لبيان السلم والأخوة والأمان هو الطبيعة ومظاهرها وعناصرها. فمن خلال أشعار ابن الفارض نجد كثيراً من مظاهر الطبيعة كالصبا، وأراضي النجد والحجاز والزوراء، والروض، والجبال، والأعيشاب و.... فعلى سبيل المثال إن وصف الصبا مما يشد انتباه قارئ أشعاره كثيراً حيث يقول في التائية الصغرى:

نعم، بالصَّبا، قلبي صبا لأحبتي — فياحبّذا ذاك الشَّذَى حين هبّتِ
سرت، فأسرّت للفؤاد، غُدَيّةً — أحاديث جيران العذيب، فسرّت
مهيمِنَةٌ بالروض، لدن رداؤها، — بها مرضٌ، من شأنه بُرء علتي
لها بأُعَيشابِ الحِجاز تحرّش — به، لابخمر، دون صحبيَ، سَكرتي

(المصدر نفسه: ۸۳)

فعندما هبت الصبا، وهي من مظاهر الطبيعة، اشتاق القلب إلى الحضرة الإلهية وفرح الشاعر وتحسنت حاله «وإن الروح الإلهية سرت في عالم الأجسام ولفتها برداء المعرفة وشفت النفوس من الأغراض الشهوانية؛ فإن السالك مريض بالجهل والغفلة فإذا عرف نفسه عرف روحه وإذا عرف روحه صحّ من مرضه وأصبح مرضه الجديد صحة وشفاء» (المصدر نفسه: ٨٣). ففي الأبيات السابقة يدل السرور، والبرء من المرض، والسكرة على الأمان والإعمار المتأتيان من حب الحضرة الإلهية. وجدير بالذكر أن الشاعر أورد في هذه الأبيات الخمر والطبيعة معاً مما زاد جمال التعبير عن السلم.

والدعاء للمنازل والربى من أجمل أشعار الطبيعة في ديوان ابن الفارض؛ حيث يقول:

حيّا الحيا تلك المنازل والرُّبى وسقى الوَلي مواطن الآلاء
ورعى الإله بها أصيحابي الألى سامرتُهم بمجامع الأهواء
(المصدر نفسه: ٢٤)

بالنظر إلى البيتين السابقين يبدو بوضوح مفهوم السلم من خلال طلب الإعمار والخصب؛ كما أن معنى الأخوة، وهو من المعاني الدالة على السلم، يظهر من البيتين السابقين حيث يدعو الشاعر لأصحابه وإخوانه الذين يسلكون سبيله ويحاولون بناء السلم في المجتمع بواسطة حب الله. وتجدر الإشارة إلى أن استخدام أسلوب التصغير في كلمة أصيحاب يوحي بحب الشاعر لأصحابه ورغبته في العيش السلمي معهم. فضلاً عما سبق ذكره لا يخفى على المتأمل أن الدعاء نفسه أحد مظاهر السلم، والشاعر في هذه الأبيات استخدمه بصورة جميلة إلى جنب مظاهر الطبيعة ليجعل القارئ يعيش في جوٍ مليئ بالسلم.

اللجوء إلى الطبيعة هو دواء الشاعر وسبب في إصلاح جسمه وروحه؛ حيث يقول:

وإذا أذى ألم ألمّ بمُهجتي فشذى أُعيشاب الحجاز دوائي
أأُذادُ عن عذب الورودِ بأرضه وأُحادُ عنه، وفي نَقاهُ بقائي
وربوعُه أرَبي، أجل، ورَبيعه طربي، وصارف أزمه اللأواء
(المصدر نفسه: ٢٣)

فالأعمال الشنيعة المنبعثة من عدم ميل الناس إلى السلم تؤدي إلى أن تؤذي الآلام جسم الشاعر وروحه، وهو يجد دواءه في اللجوء إلى أعيشاب الحجاز، وعذب وروده، وأرض النقا، وربوع الحجاز وربيعه؛ وكل ذلك من مظاهر الطبيعة التي يجد فيها الشاعر دواءه.

المسارح أو المراعي، والخمائل والأصائل، والأنداء، والغمام، والنور، والأزهار، والنسيم، والأرج كلها من مظاهر الطبيعة ويصفها الشاعر وصفاً رائعاً، ويعبر من خلالها عن السلم والإعمار؛ إذ يقول:

وفي مسارح غزلان الخمائل في برد الأصائل والإصباح في البلج

وفي مساقط أنداء الغمام على بساط نَوْر، من الأزهار منتسج
وفي مساحب أذيال النسيم، إذا أهدى إليّ سُحيراً، أطيب الأرَج
(المصدر نفسه: ١٠١-١٠٢)

فإن الطبيعة مظهر من مظاهر الإعمار والنمو والخصب ولكن من المؤسف جداً أن الإنسان يدمرها دائماً بالحروب المختلفة بدلاً من أن يعمرها ويتمتع بها، كما يدمر كل القيم الإنسانية بدلاً من أن يقوم بإعمارها ويعمل لبناء العلاقات الودية بين الناس. ونلاحظ أن ابن الفارض يلجأ إلى الطبيعة ويصف مظاهرها لكي يعبر عن حلاوة السلم ومرارة الحرب وينهض ضد الذين يدمرون الطبيعة ويرتكبون الجرائم الفظيعة ضدها.

وعندما يجد ابن الفارض أن الإنسان لا يكف عن تدمير الطبيعة ولايتيح للشاعر أن يستمتع بها يتذكر القيم المفقودة ويتلهف على الزمن الذي لم يدمر المفاسد والفتن الطبيعة والقيمة الإنسانية؛ إذ يقول:

واهاً إلى ماء العُذيب وكيف لي بحشاي، لو يُطفى ببَرد زُلاله
ولقد يجلّ، عن اشتياقي، ماؤه شرفاً، فواظمئي للامع آله
(المصدر نفسه: ١٦١)

فيتلهف الشاعر على ماء العذيب والزمن الذي كان يستمتع بماءه البارد العذب دون أن يفقد سلامه الداخلي وهدوءه.

يتمنى ابن الفارض أن يحقق السلم للبشر ولا نجد أي حرب وفساد وجريمة في العالم؛ ولكن الحصول على هذا الشيء المحبوب صعب للغاية وكأنه لا يرى أي فائدة في الترقب لتحققه. إذ يقول:

مواطن أفراحي ومربى مآربي وأوطار أوطاري ومأمن خيفتي
مغانٍ بها لم يدخل الدهر بيننا، ولا كادنا صرف الزمان بفُرقة
ولا شنّع الواشي بصد وهجرة ولا أرجف اللاحي ببين وسلوة
ولا اختص وقتٌ دون وقت بطيبة بها كل أوقاتي مواسم لَذة
(المصدر نفسه: ٥٢-٥٣)

فإن مواطن أفراح الشاعر ومدينته الفاضلة هي تحقيق السلم في العالم؛ حيث يتمنى ألّا يقبّحه ويفضحه الواشي ولايبعد المبغض القلوب ولا يكون الأوقات الطيبة قصيرة وغير ذلك من الأمور التي إذا ما تحققت استقرت السلم في العالم وطابت جميع أوقات الشاعر وحصل على كل شيء يحبذه؛ حيث يقول:

نهاري أصيل كله، إن تسنّمت أوائله منها بردّ تحيتي
وليلي فيها كله سحرٌ، إذا سرى لي منها فيه عَرفُ نُسيمةِ

وإن قربت داري، فعامي كله　　زمان الصبا، طيباً، وعصرُ الشبيبة

(المصدر نفسه: ٥٣)

٤-١-٣. الوصل وتحقق السلم في شعر ابن الفارض

لقد ذكرنا فيما سبق أن تحقق السلم الداخلي مهم جداً وهو الركيزة الأساسية لتحقق السلم الاجتماعي والسلم الخارجي. ويكون هذا النوع من السلم محطة انتباه ابن الفارض في أغلب أشعاره. على سبيل المثال يرى ابن الفارض أن الوصل واللقاء يتحقق له السلم الداخلي والهدوء وينجيه من القلق والاكتئاب وقد ذكره في مواضع كثيرة، مثل قوله:

فيا ما ألذ الذلّ في عِزّ وصلكم　　وإن عَزّ، ما أحلى تقطُّع أوصالي

نأيتم فحالي بعدكم ظل عاطلاً　　وما هو مما ساء، بل سرّكم حالي

(المصدر نفسه: ١٧٠)

فإن الشاعر يرى أن الوصل هو أحلى شيء له والبعد أو النأي يؤدي إلى أن يظل حال الشاعر عاطلاً؛ فليس هذا الوصل سوى الحصول على السكينة والسلام الداخلي الذي يطلبه الشاعر. والشاعر يطلب الوصل في كل أحواله ويحاول دائماً أن يقترب من الحبيب الأزلي ويشهد تجليات المحبوب الحقيقي لئلا يبعد من الهدوء والسلام الداخلي، ولايهمه ما يعاني في هذا الطريق من المشاكل والصعوبات والأسقام ولوم اللائم. إذ يقول:

أرى البعد لم يُخظِر سواكم على بالي　　وإن قرّب الأخطارَ من جسدي البالي

فيا حبذا الأسقام، في جنب طاعتي　　أوامر أشواقي، وعصيان عُذّالي

(المصدر نفسه: ١٧٠)

فلا يحبذ الشاعر كل ما يعاني منه في طلب حضور الحبيب ووصله فحسب بل يجد البعد عن الحبيب أعذب تعذيب له؛ حيث يقول:

أي تعذيب، سوى البُعد، لنا　　منك عذب، حبذا ما بَعدَ أي

(المصدر نفسه: ٢١١)

إذاً يحاول الشاعر في كل أحواله أن يجد الوصل لكي يحصل على الهدوء والسلام وإن كان الحبيب بعيداً عنه. وما يلفت الانتباه هو أنه لم يكتف بوصل الحبيب الأزلي، بل يطلب وصل أصحابه؛ وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن الشاعر يحبذ السلم الاجتماعي وبعد أن تحقق له السلم الداخلي يحاول أن يدعو الجميع إلى السلم الاجتماعي، حيث إنه يطلب منهم أن يقتربوا منه. إذ يقول:

يا أصيحابي، تمادى بَيْنُنا　　ولِبُعدٍ بينَنا لم يُقضَ طَي

عهدُكم، وهناً، كبيت العنكبو تِ، وعهدي، كقَليبٍ آدَ طَي

(المصدر نفسه: ٢١٤)

فنلاحظ أن الشاعر يطلب وصل الأصحاب وينادي بتحقق السلم بينهم ويشكو من عهدهم الواهن والواهي للوصل.

٤-١-٤. تحقق السلم بين الأديان في شعر ابن الفارض

يعتقد الشاعر أننا إذا دققنا النظر في الأديان المختلفة سنجد أن جميعها تحثّ على تحقق السلم وسيادته وتؤكد احترام الآخرين ومحبتهم وإن اختلفوا في دينهم. فإنما الأديان عند الشاعر تدعو إلى الحب والسلم ولكن قراءات البشر الخاطئة لها يوجّهها كما يشاء ويوظفها لتدمير العالم وبث الفتن. حيث يقول:

وما عَقَد الزّنار حُكماً سوى يدي وإن حُلّ بالإقرار بي فَهْي حلّت

وإن نار بالتنزيل محراب مسجد فما بار بالإنجيل هيكلُ بِيعة

وأسفارُ توراةِ الكليم لقومه، يُناجي بها الأحبارُ في كل ليلة

فلا عبثٌ والخَلق لم يُخلقوا سُدى وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة

(المصدر نفسه: ٨٠-٨١)

شدّ الزنار في البيت الأول يشير إلى الديانة المسيحية ومحراب المسجد في البيت الثاني رمز للإسلام والتوراة والكليم في البيت الثالث رمزان لليهودية؛ فقد جمع الشاعر بين الأديان المذكورة في هذه الأبيات ليعبر عن فكرته الصوفية التي ترى أن الديانات جميعها تنادي بنشر المحبة والسلم بين الناس؛ فيرى الشاعر أنه ليس الدين إلا الحب والسلم ولكن البشر يوجه الدين كما يشاء.

فنلاحظ أن أشعار ابن الفارض مملوءة بمضامين السلم والأخوة والتصالح والحديث عن الطبيعة والسلم الإيجابي أكثر شيوعاً من السلم السلبي؛ وهذا الأمر يبدو بإمعان النظر في أشعاره. فقد وجدنا من خلال تحليل أشعاره في دراستنا هذه أن أغلبها تكشف عن ميل الشاعر إلى الدعوة إلى السلم.

النتيجة

كانت هذه الدراسة تهدف إلى كشف تجليات السلم في الأشعار الصوفية لابن الفارض؛ وقد توصلت من خلال تحليل أشعاره إلى نتائج يأتي تفصيلها فيما يلي:

- إن الشاعر استخدم مفاهيم السلم في شعره استخداماً كثيراً؛ فبإمعان النظر في المعاني الصوفية التي يتجسدها الشاعر نجد أنه في كثير من الأحيان يشير إلى المضامين التي تدل على السلم ويدعو الناس إلى السلم بصورة غير مباشرة.

– من أهم تجليات السلم في شعر ابن الفارض استخدام مفاهيم الحب والطبيعة والإعمار والإصلاح؛ حيث نجد أنها أكثر شيوعاً في أشعار ابن الفارض وقد وظفها الشاعر للدعوة إلى التصالح والسلم بين الناس. ولكن قلما نجد في أشعار الشاعر الحديث عن الحرية.

– إن حب الحبيب الأزلي عند ابن الفارض، من أهم الأسباب التي تحقق للإنسان السلام الداخلي والسلام الخارجي؛ ولعله يعتقد أن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى السلم بأنواعه المختلفة دون التمسك بمفهوم السلم عند الصوفيين. ويرى ابن الفارض أن الخمرة التي هي رمز لحب الحبيب الأزلي، يمكن لها أن تسبب الإعمار والإصلاح وعودة الروح وانتعاش الجسم، ومر بنا أن هذه المفاهيم كلها تعد من المفاهيم الدالة على السلم.

– إن اهتمام ابن الفارض في أشعاره ببناء السلام أكثر من اهتمامه بصنع السلام وحفظ السلام؛ أي يعتقد الشاعر أنه يجب تهيئة الظروف التي تمكن المجتمع من أن يعيش في سلام.

– على الأغلب نلاحظ أن السلم الذي يدعو إليه ابن الفارض هو السلم الإيجابي أي غياب العنف اللامباشر، ووجود الانسجام والاتحاد فيما بين الأفراد وتوفر هدوء البال وقيم انسانية مشتركة.

– مر بنا أن الحصول على السلم الاجتماعي يحتاج إلى تحقق السلم الداخلي، وهناك علاقة وطيدة بين الشعر الصوفي والسلم الداخلي وقد لاحظنا أن الشاعر الصوفي ابن الفارض إذاما تأكد من تحقق سلمه الداخلي تمكن من دعوة العالم إلى السلم الداخلي والخارجي في شعره بأحسن شكل.

– من أهم تجليات السلم الداخلي في شعر ابن الفارض هي الحديث عن الوصل واللقاء؛ حيث يرى الشاعر أن الوصل يتحقق له الهدوء وينجيه من القلق والاكتئاب.

– يرى ابن الفارض أن تحقق السلم والهدوء للبشر صعب للغاية أو مستحيل وكأنه لا يرى أي فائدة في الترقب لتحققه.

– بدقة النظر في أشعار ابن الفارض يبدو أنه يرى أن الأديان المختلفة في نفسها لا تحث إلا على تحقق السلم والمحبة وسيادتهما، ولكن قراءات البشر الخاطئة للأديان يوجّهها كما يشاء ويوظفها لتدمير العالم وشن الحرب والفساد.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- ابن الفارض، عمر (١٩٩٠)، ***الديوان***، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتب العلمية.

- ابن غالب، رشيد (لاتا)، ***شرح ديوان ابن الفارض للشيخين حسن البوريني وعبدالغني النابلسي***، بيروت: دار التراث.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٩٢). ***لسان العرب***. تعليق: علي شيري. ط٢. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- احمدي، محمد رضا (١٣٩٧)، الاتجاهات الصوفية في الشعرين العربي والفارسي المعاصرين منذ منتصف القرن العشرين إلى نهايته (إيران، ومصر وسوريا نموذجاً)، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة تربيت مدرس، إيران.
- افتخاري، اصغر وحسين محمدي سيرت (٢٠١٤)، «صلح و سلم در قرآن كريم»، ***مطالعات قرآن و حديث***، المجلد ٦، العدد ٢، صص ٥٣-٧٨.
- بوتول، گاستون (١٣٧١)، ***جامعه شناسى صلح***، الترجمة: هوشنگ فرخجسته، طهران: نشر شيفته.
- الجرجاني، علي بن محمد (دتا)، ***معجم التعاريف***، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، القاهرة: دار الفضيلة.
- جودة نصر، عاطف (١٩٨٣)، ***الرمز الشعري عند الصوفية***، لبنان: دار الأندلس.
- حلمي، محمد مصطفى (دتا)، ***ابن الفارض والحب الإلهي***، ط ٢، القاهرة: دارالمعارف.
- سيفي، محسن ورويا اسماعيليان (٢٠١٧)، «ريشه‌يابى تاريخى جامعه شناسى صلح در معلقه زهير بن ابي سلمى»، ***مطالعات تاريخ و تمدن ايران و اسلام***، المجلد الأول، العدد ٤، صص ٣٧-٥٢.
- الشهابي، إبراهيم يحيى (١٩٩٠)، ***مفهوم الحرب والسلام في الإسلام: صراعات وحروب أم تفاعل وسلام***، مؤسسة مي للطباعة والتوزيع.
- عبد المؤمن عمر، عبدالحي القاسم وآخرون (٢٠١٦)، «دعائم السلام الاجتماعي في الأسرة المسلمة»، ***دفاتر السياسة والقانون***، العدد ١٤، صص ٢٣٣-٢٥٨.
- عبد الوهاب، أشرف (٢٠٠٦)، ***التراث والتغير الإجتماعي (التسامح الإجتماعي بين التراث والتغير)***، المصر: الهيئة العامة المصرية للكتاب.
- فوكو، ميشال (١٣٨٣)، ***اراده به دانستن***، الترجمة إلى الفارسية: افشين جهان‌ديده و نيكو سرخوش، طهران: نشر ني.

- مرادي، محمد هادى وفاطمة نصراللهي (٢٠١٢)، «الغزل الصوفي عند ابن الفارض وجامي: دراسة نقدية مقارنة في المضمون»، ***إضاءات نقدية***، السنة الأولى، العدد الأول، صص ١٠٩-١٢٤.
- معارز، عباس أمير (٢٠١٧)، «السلم المجتمعي بين الوحدة والتعدد-النص القرآني مدخلا»، ***مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية***، المجلد ٧، العدد ٣ صص ١-٢٠.
- ممبيني، سجاد وآخرون (٢٠١٦)، «تحليل محتواى مفهوم صلح در شعر شاملو (مطالعه موردى: مجموعه هواى تازه)»، ***پژوهش‌های نقد ادبی و سبک شناسی***، العدد ١٩، صص ١٩٧-٢١٧.
- منصور، إبراهيم محمد (١٩٩٩)، الشعر والتصوف: الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، القاهرة: دار الأمين.
- المؤمني، محمد سليمان (٢٠١٨)، «السلم الاجتماعي دراسة تأصيلية»، ***مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الشرعية والقانونية***، المجلد ٢٦، العدد ١، صص ١١٦-١٥٢.
- Galtung, J (1968), Peace in D. Sills (Ed.) *International Encyclopedia of Social Sciences Gerner*. Paris: UNESCO.